ديوان الطرائف :

سبط ابن التعاويذي

للأستاذ أحمد عثمان عبد المجيد

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله ، وينسب إلى ابن التعاويذى جده لأمه لأنه نشأ فى كنفه وحياطته ، وكان جده هذا زاهداً تقيا وعدثاً صالحاً .

وقد ورث أبو الفتح عن جـده الرغبة فى الدرس والتعلق بأسباب الثقافة ، فأقبل على النظر فى كتب اللغة والأدب ، يسعده طبع أصيل ، وتمده ملكة مرهفة ، حتى عرف بالبراعة فى الكتابة والحسابة ، وجلى فى ميدان الشعر ، فجمع فيه بين جزالة اللفظ وعذوبته ، ورقة المعنى ودقته . وفيه يقـول ابن خلـكان : إنه لم يكن قبله بمئتى سنة من يضاهيه . وكأنما خاف أن يتهم بالمبالغة والتزيد فأردف حكمه بقوله : ولا يؤاخذنى من يقف على هذا الفصل ، فإن ذلك يختلف بميل الطباع ، ولله در القائل : وللناس فيما يعشقون مذاهب .

وقد تأثر أبو الفتح فى نثره طريقة ابن العميد القائمة على العناية بالتصنيع والتزيين ، وصرف الجهد إلى تكلف وجوه البديع

ولقد فتن كتاب الدواوين جميعاً بهذه الطريقة منذ أنهجها لهم أستاذهم ابن العميد ، وأغرقوا من بعده فى تصيد المحسنات ، فجنوا على المعنى ، وتحيفوا الفكرة رغبة فى تجويد الصـورة وتجميلها فخرجوا على الناس حينا بنثر مرقش ليس وراءه كبير معنى ولا جليل غرض ؛ وحينا بنثر كز منقبض لا يفصح عن مراد ولا يهدى إلى قصـــد ، إذ جنى البديع عليه فأغمضه وأزال وضوحه وأوقع قارئه فى عمايه . وحسبك أن ترسل طرفك فى كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى للعماد الأصفهانى صديق سبط ابن التعاويذى لترى الغرابة والاستبهام والكزازة .

وقد أورد العماد فى كتابه خريدة القصر وجريدة العصر طائفة من الرسائل التى تلقاها من ابن التعاويذى ، وفيها يتحرى الطريقة البديعية ، ويلتزم نهجها

ولقد ولى الكتابة بديوان الإقطاع ببغداد لبراعته فى الحسابة والإنشاء ، وانقطع إلى آل الرفيـل ، وكان ولاؤه فيهم ، يمدحهم ويستمنحهم ، وكانوا سادة ذوى نفوذ وسلطان ، وقد ولى الوزارة منهم عضد الدين أبو الفرج للخليفة المستضىء . وفيه يقول الفخرى : كان من أفاضل الناس وأعيانهم ، نهض بأعباء الوزارة نهوضاً مرضيا ، وتلطف بالأمور تلطفاً لم يكن فى حساب الناس وبيته بيت مشهور بالرياسة .

ويبدو أن ابن التعاويذى قد أنفق جل عمره مع آل الرفيل يحمد لهم إقبالهم على بره وإنعاشـه . فإن أحس منهم إغفالا له واطراحا لما ألزمهم من حقه جاهر بلومهم والإنكار عليهم . وفيهم يقول :

قضيت شطر العمر فى مدحكم ظنا بكم أنكم أهـــله
وعـدت أفنيه هجاء لكم فضاع فيكم عُمرى كلـه

وهذا قول قاس ، يدل على أن شعراء المدح والاستمناح ما كان يردعهم عن التدلى إلى المجاهرة بالهجاء سالف معروف ، ولا سابق مبرّة . وأنهم إن أعطوا منهم رضوا ، وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون .

ولعل نهم ابن التعاويذى بالمال كان يدفعه إلى مدح غيرهم ، ولعلهم تقموا منه ذلك وأنكروه عليه لأنه إن دل على شىء فإنما يدل على أن صنائعهم إليه لا تنهض بحاجاته ، ولا تفى برغائبه . فقال يعتذر مسجلا فى صراحة أنه كخماص الطير تجتذبه الجدوى كما يقنصها الحب ، وهو بهذا يستفيد من قول المتقدم :

يسقط الطير حيث ينتثر الحب (م) وتغشى منازل الكرماء

قال :

وما زلت فى آل الرقيل بمعزل عن الجور مبذولا لى الخصب
فإن أقترف ذنبا بمدح سواهم فإن خماص الطير يقنصها الحب
وإن عاد لى عطف الوزير محمـــد
فقد أكتب النائى ، ولان لى الصعب
وزير إذا اعتل الزمان فرأيه لهناء به تطلى خلائقه الجرب

ولقد دفعته صلته بآل الرفيل إلى أن يناصب الوزير ابن البلدى العداء ، وأن يهجوه حين عزل أرباب الدواوين واشتد عليهم بالمصادرة والعقاب . وكان بين عضد الدين الرفيلى وابن البلدى

جفاء ما فتئ يتفاقم حتى حمل عضد الدين على أن يدبر لقتل الوزير وتم له ذلك ، ووثب من بعده على الوزارة . وفى ابن البلدى يقول ابن التعاويذى :

يا قاصدا بغداد ، حد عن بلدة ... للجور فيها زخرة وعباب
إن كنت طالب حاجة فارجع فقد ... سدت على الراجى بها الأبواب
بادت وأهلوها معا ، فبيوتهم ... ببقاء مولانا الوزير خراب

وفيه يقول أيضاً : —

يا رب أشكو إليك ضرا ... أنت على كشفه قدير
أليس صرنا إلى زمان ... فيه أبو جعفر وزير ؟

وما زال ابن التعاويذى قائما بالعمل فى ديوان الأقطاع حتى ذهب بصره ، فاعتزله وله فى عماه أشعار كثيرة يرثى بها عينيه ويندب الشباب ورونقه ، فيستدر بها الإشفاق ، ويستدعى أبلغ العطف وأعمقه . ومنها :

لقد رمتنى — رميت بالأذى — ... بنكبة قاصمة الظهر
وأوترت فى مقلة ، قلما ... علمتها باتت على وتر
جوهرة كنت ضنينا بها ... نفيسة القيمة والقدر
إن أنا لم أبك عليها دما ... فضلا عن الدمع ، فما عذرى ؟
مالى لا أبكى على فقدها ... بكاء خنساء على صخر ؟

وأنت تتمثل فى هذه الأبيات حر اللوعة ، ولذع الفاجعة فى الاعتراض بقوله رميت بالأذى ، وفى الكناية عما كرثه بقوله قاصمة الظهر ، وفى مقالاته بمقلته فلم تكن لتنام على وتر ، وفى إنكاره أن يكون له عذر إن يبكها دما ، ومنها :

فها أنا كالمقبور فى كسر منزلى ... سواء صباحى عنده ومسائى
يرق ويبكى حاسدى لى رحمة ... وبعداً لها من رقة وبكاء

وقد جاء فى عبارة ابن خلكان نعته إياه بالعمق فى معانيه . وإليك أمثلة من براعته فى التوليد : قال فى الشيخوخة :

من شبه العمر بالكأس يرسو ... قذاه ، ويرسب فى أسفله
فإنى رأيت القذى طافيا ... على صفحة الكأس من أوله

وقال فيها أيضا :

وعلو السن قد كسر (م) بالشيب ... نشاطى
كيف سموه علوا ... وهو أخذ فى انحطاط؟

وقال :

ولم أكره بياض الشيب إلا ... لأن العيب يظهر فى النهار

***

ولما عمى التمس أن يقيد ماله من راتب بالديوان بأسماء أولاده ثقة منه بأن يجد فى ذراهم برا به ما امتدت له الحياة ، وتعجيلا لسوق النفع إليهم ، ورفعا لأسباب التباغض من بينهم فلما تم النقل والتقييد كتب قصيدة ورفعها إلى الخليفة الناصر يلتمس فيها تجديد راتب له مدة حياته لما جر به من عقوق أولاده . وقد أبدع فيها تصوير عقوقهم ، واحتجانهم الراتب من دونه ، وإهمالهم أمره ، وكان الناصر من أفاضل الخلفاء ، بصيرا بليغا ، متوقد الذكاء والفطنة ، غير مدافع عن فضيلة علم ، ولا نادرة فهم ، يفاوض العلماء مفاوضة خبير ، فلما وقف عليها ملكت نفسه لعذوبتها ورقتها ، وما يثيره موضوعها من إشفاق ومرحمة ، وما افتتحها به من مدح جميل ، فأنعم عليه براتب جديد ومطلعها :

خليفة الله انت بالدين والدنيا (م) ، وأمر الإسلام مضطلع

ومضى يمدح الخليفة بانتهاجه نهج أعلام الهدى ، وما أفاضه على الناس من عدل وخير ، وما أزاله من أسباب الخلاف والبدع ، ثم قال :

أرضى قد أجدبت ، وليس لمن ... أجدب يوما سواك منتجع
ولى عيال ، لا در درهم ... قد أكلوا دهرهم ، وما شبعوا
إذا رأونى ذا ثروة جلسوا ... حولى ، ومالوا إلى واجتمعوا
وطالما قطعوا حبالى إء (م) راضا إذا لم تكن معى قطع
يعشون حولى شتى كأنهم ... عقارب ، كلما سموا لسعوا

ثم قال :

لهم حلوق تفضى إلى معد ... تحمل فى الأكل فوق ما تسع
من كل رحب المعاء ، أجوف نا (م) رى الحشا لا يمسه شبع
لا يحسن المضغ فهو يطرح فى ... فيه بلا كلفة ويبتلع
ولى حديث يلهى ويعجب من ... يوسع لى خلقه فيستمع
نقلت رسمى جهلا إلى ولد ... لست بهم ما حييت أنتفع
نظرت فى نفعهم وما أنا فى اج ... ستلاب نفع الأولاد مبتدع
وقلت هذا بعدى يكون لكم ... فما أطاعوا أمرى ولا سمعوا
واختلبوه منى ، فما تركوا ... عينى عليه ، ولا يدى تقع